هؤلاء الكتاب

للأستاذ م . دراج

. . . وقلت لنفسي : لقد أصبح الناس يقابلون بالشك والارتياب كتابة الكتاب والمفكرين . فإذا تقصيت السر وجدتهم على حق فيما يشكون ؛ فقد باع هؤلاء الكتاب حرية الفكر بعبودية المال ، ورضوا وهم طلائع الأمة أن ينقادوا لرجال المال والأعمال ؛ وقلما تتفق مصالح الشعب ومصالح أولئك الرجال ؛ ولعل هذا هو أكبر ما تعانيه من بلاء ، بل لعله السر الوحيد فيما وصل إليه المجتمع من تفكك وانحطاط .

فالتنافس في سبيل القوت قد انقلب إلى تناحر مادي فظيع ليس له حدود ، وطريق الاستقلال مفتوح على مصراعيه لكل طارق ، وليس للكائنات البشرية قيمة تذكر أمام الغاية الكبرى ، وهي جمع المال والإثراء بأي ثمن . فالذي يستطيع أن يأتي بقدر من المال في عمل ما يجد العامل الذي يرضى بالدون من الكفاف ؛ ويستطيع أيضاً أن يرغمه على العمل ليل نهار بزيادة بضع قروش أو بضع مليمات ! وله الحق في هذا ما دامت قوانين الدولة لا ترسم حدوداً لمثل هذا الاستغلال الفظيع ، وما دام الضمير الإنساني لا يتزعج لهذه الحال ؛ فكل شيء على ما يرام ! أفبعد هذا نلوم الناس على انصرافهم وشكوكهم في إخلاص المفكرين والكتاب ! أليس الدليل الواضح أمامنا في كتابات الصحف اليومية وغير اليومية يعطي أصدق برهان على فساد « التفكير الجماعي » عند هؤلاء الكتاب . إنهم ليفسحون لرجال المال صدور الصحف يكتبون ويملئون فيها ما شاء لهم الغرض . ثم لا يجدون غضاضة في إعطائهم فرصة للكلام عن بؤس الفلاح وشقاء العامل واضطراب الوظف وحيرة الجماعات ، ومتاعب الشعب جملة وتفصيلاً . . . ليستتروا وراء هذه الإعلانات في ثوب الطبيب الذي يتوجع لآلام المريض ، وهو يعلم أن بلسمه الشافي بين يديه ، ولكنه لا ينزل عن الثمن بأي حال !

هؤلاء الكتاب يسيئون الظن في ذكاء « الغريزة المصرية الواعية » مثلما يسيئون إلى الشعب المصري بقوائم الإحسان التي يملئون منها كل يوم في صحفهم . لقد فسدت عندهم مقاييس الإصلاح ، فتوهموا أن الكلام قد يغني عن الخبز ، وأن الإحسان أجدى وسائل الإصلاح ، وأن الدنيا بخير ما داموا هم سعداء ! إلا أن الشعب المصري لا يطلب إحساناً ولا بكاء . . . لا ، ولا إشفاقاً ، وإنما يبغي علاجاً حاسماً يقضي على أسباب المرض دفعة واحدة لا تقسيطاً ؛ ولن يكون هذا العلاج إلا « جماعياً » تؤمن به الدولة وتسنه قوانينها ، حتى إذا جرى مجرى التنفيذ أفاد كل « خلية » في جسم الأمة ، كما تتغذى الدماء الأعضاء المشلولة بالحياة .

هراء . . . محض هراء . . . كل ما تذيعه الصحف من علاجات أرباب المال ، لأنهم لا يريدون إلا تبرعاً ، والتبرع قد يفيد شخصاً وقد ينجد أسرة ، وقد ينقذ ألفاً من الناس ، ولكنه لا ينقذ شعباً بأسره يعد الفقراء فيه بسبعة عشر مليوناً إلا بضع عشر ألفاً من الأثرياء .

هؤلاء الكتاب يعرفون — أو لا يعرفون — أن سكرة الموت يعقبها هزة عنيفة هي هزة اليأس أو الرجاء ، فإذا تراهم صانعين بأقلامهم المزيفة لو صح للمريض ، وسلمت روحه من الفناء ، هل يظنون آنذاك أنها إحدى معجزات الإحسان ؟ ! أم يشهدون أن القوة الكامنة في قرارة النفس المصرية هي التي مهدت له طريق الحياة ؟

أيها الكتاب اطرحوا عنكم ضلال المادة . ثم اكشفوا الغطاء عن موطن الداء . تهيئون لكم وللناس فرصة طيبة للعودة إلى الحق والصراط المستقيم . فالتفكير الفردي لا يجذب الجماعات ، لأن الإحساس الجماعي يتطلب « تفكيراً جماعياً » ، ونحن في أشد الحاجة إلى هذا اللون من التفكير يسود أذهان الكتاب ، ولا شيء سواه يمكن أن يضيء للمجتمع طريقه إلى الخلاص وسط هذا الظلام .

والداء العياء لهذا البلد هو الإعسار الشديد في العيش ، والإظلام الشديد في العقول والقلوب ، حتى أصبحت البيئة المصرية مزرعة للايين الأمراض البشرية ، والأمية سبة في جبين كل مصري يتبعها انحطاط في الأخلاق والتفكير والأحوال المعاشية بوجه عام

داء مصر الوحيد هو الفقر بعينه بشهادة اللجنة المالية لمجلس الشيوخ . فإذا استطعتم أن تقولوا كلمتكم في هذا المرض العضال وشرحتم أسبابه وفصلتم نتائجه ورسمتم على هذا النهج طريق الخلاص ، أمكنكم النهوض بهذه الأمة سريعاً ، أما غير ذلك فضرب من الخال ، وضجة وتشويش في غير مجال .

م . دراج